التنـاص القـرآني في شعـر الشيخ عبد القـادر الجيلانـي
ـ خصـوصية التـوظيـف ـ

أ.قيداري قويدر
جـامعة معسـكر

ملخص:
سنتناول في هذه الدراسة شعر الشيخ الجيلاني في علاقاته التناصية مع القرآن الكريم باعتماد الأدوات الإجرائية التي اقترحها د/ محمد مفتاح، وعمدنا إلى مساءلة مدونتنا بالتركيز على علاقاتها الحوارية وخصوصياتها التداولية.

1- مفهـوم التنـاص :

ا- المصطلح: مصطلح " التناص" مقتبس من الكلمة الأجنبية "intertextualité" التي ظهرت في اللغة الفرنسية سنة 1958، حسب ما هو مذكور في المعجم الفرنسي "Le Petit Robert"،وهي منحوتة من كلمتين:"inter " المختصرة من :"intérieur" بمعنى (داخل)، و"textuel " نسبة إلى "texte " بمعنى(نصِّي). (الحسني،م.2007: 20)

ب-المفهـوم: التناص هو:"مجموع العلاقات الموجودة بين نص أدبي ونص أو نصوص أخرى يقوم القارئ اعتمادا عليها بمقارباته .(الحسني ،م.2007: 20)

لا يمكن عزل فكرة التناص في أصلها، عن الأعمال النظرية لجماعة:"Tel quel" ومجلتها الحاملة لاسمها التي تأسست سنة 1960، ففي سنة 1969/1968 ظهر بشكل رسمي المفهوم الجوهري للتناص في المعجم النقدي للطليعة من خلال إصدارين:

-الأول: بعنوان "نظرية الجماعة " وهو مؤلف جماعي شارك فيه كل من: فوكو، وبارث، ودريدا، وسوليرس ، وكريستيفا .

-والثانـي: بعنوان "سيميوطيقا البحث من أجل تحليل دلالي " لجوليا كريستيفا "سنة 1969م، ويجمع سلسلة من المقالات كتبتها بين سنتي (1966-1969).(الحسني،م.2007: 28-29)

اعتبرت جوليا كريستيفا التناص : ترحالا للنصوص وتداخلا نصيا، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى.(كرستيفا،ج.1991: 21)

المنارة للاستشارات
ww

لن نتعرض لمفهوم التناص لدى النقاد أو البلاغيين العرب القدامى، رغم أنهم وضعوا لذلك مصطلحات متقاربة في مفاهيمها بل أحيانا تطابقت كثير منها مع مفهوم التناص (من تلك المصطلحات، نذكر:الاحتذاء، المحاكاة، الاستشهاد، التضمين، السرقة، التداخل...)، فالحديث حول هذا الموضوع قد يطول وربما يستهلك كتابا مستقلا، كما أن مسار هذه الدراسة وغرضها لا يسمحان بذلك على أننا سنكتفي فقط بإثبات مفهوم التناص عند أحد النقاد والدارسين العرب المعاصرين وهو د/ محمد مفتاح لكون هذه الدراسة ستستعين بأدواته الإجرائية التي صاغها حول المفهوم (التناص).

ج_ مفهوم التناص عند محمد مفتاح: اعتبر د/ محمد مفتاح" التناص": فسيفساء من النصوص المتعالقة مع نصٍّ ما، يمتصها ويصيرها من عندياته أو يحولها بالتمطيط والتكثيف بقصد مناقضتها أو تعضيدها (الحسني،م.2007:47).

يرى محمد مفتاح أنه في كل تناص، لا بد من مقصدية وتماثل أو تشابه مع النصوص المستدعاة، وموقفٍ ما قد يكون سخرية أو تعضيدا:

1- فالمقصدية : هي ما يكون محركا للمنتِج وللمتلقي من معتقدات وظنون وأوهام بوعي أو بدون وعي.

2 - المماثلة والمشابهة: هي نسبة الاتفاق بين المتناصين بحيث تعني المماثلة الاتفاق في أغلب العناصر الذاتية بينها، وتعني المشابهة الاتفاق في أقل ما يكون منها.

3 - نوع العلاقة: هي تلك التي يربطها النص اللاحق مع النص السابق، وهي على العموم إما علاقة تعضيد أو علاقة تنافر.

وتتفرع العلاقة التعضيدية حسب محمد مفتاح إلى: (التبجيل- الاحترام- الوقار "التوقير")، أما العلاقة التنافرية فتتفرع إلى: (الاستهزاء- السخرية- الدعابة) (الحسني،م.2007 : 51).

2- الأثر القرآني في التراث الصوفي:

كان القدماء صوفية وفقهاء وشعراء وعلماء في الغالب الأعم يعتبرون أن تنمية ملكة اللسان لا تكون إلا بحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف والأخبار والشعر القديم، بل إن المنظومة التعليمية آنذاك كانت مبنية على هذه المسلمة.

والقرآن الكريم أصل الأصول، ومصدر مصادر المعرفة الإسلامية على اختلاف مذاهبها ومناهجها العقلية، وسننها الباطنية والظاهرية، وهو العلة الأولى لنشأة الفكر الإسلامي وتشعب فنونه، وثراء علومه.

أما الصوفي صاحب القلب العاشق، فيجد سرّ معرفته في عين التنزيل الإلهي ونبع ينابيع غيث رحمته، فهو" البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين". وصلة الصوفي بقرآنه تبدو جلية في مقولة سهل التستري: "ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان": ظاهر وباطن، وحدّ ومطلَع، فالظاهر: التلاوة،

المنارة للاستشارات
ww

والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها، والمطلع: إشراف القلب على المراد بها فقهًا من الله عز وجل. (أمين أحمد،ع.1992:106)

وقد أورد ابن عجيبة تفسيرا جميلا يتضمن تناصا وتأويلا ومحاكاة للنظم القرآني لقوله تعالى: (وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي....) [طه الآية 17] حيث يقول: "يقال للفقير: وما تلك بيمينك أيها الفقير (الصوفي)؟ قال: هي دنياي أعتمد عليها في قيام بنيتي وأنفق منها على عيالي، ولي فيها مآرب أخرى أتصدق منها... فيقال: له ألقها من يدك. فألقاها فإذا هي حية تسعى كادت تلدغه في قلبه وتشغله عن شهود ربه، فلما فر منها وآيس من نفعها، قيل له: خذها ولا تخف لأنك غني بالله عنها، فتأخذها بالله، لا بنفسك، وتدفعها كذلك (الصغير،ع.1999: 87).

فالمعرفة الصوفية الظاهرة والباطنة تصدر عن ينبوع قرآني وقد انعكس ذلك في منتوجهم شعرا كان أم نثرا، بل كثيرا ما كان النص القرآني نفسه في قفص الاتهام بداعي محاولة محاكاة النظم القرآني؛ يقول الحلاج :"القرآن لسان كل علم ...وفي القرآن علم كل شيء..."(الصغير،ع.1999 :107-108)

"فالحلاج يحاكي النظم القرآني في أسماء سوره ليصنف سفريه "الذاريات ذروا "والنجم إذا هوى" كما يضمَن محكم آياته مصنَفه "الظل الممدود والماء المسكوب..." فقد يرى أن شطراً من آية قرآنية يحمل مضمون فلسفته الإرشادية والرمزية، وفي استعارتها وتضمينه للبنية القرآنية بيان لطبيعته المنهجية، في التلاحم الفني بين الرمز الصوفي والتنزيل الإلهي... (الصغير،ع.1999: 193-195)

وقد أنشد الحلاج قصيدة النهاية وأتمّها بتناص مع كلمات من القرآن الكريم بقوله:

مضى الجميع فلا عين ولا أثر مضى عاد وفقــدان الألى إرم

وخلفوا معشرا يحذون لبسهم أعمى من البهم بل أعمى من النعم (الصغير،ع.1999: 194)

وهذا الفن الحلاجي اختص به صفوة الصوفية، من أمثال محي الدين ابن عربي وابن الفارض، وعبد الكريم الجيلي، والتستري، وابن سبعين ، والعفيف التلمساني ، وابن عجيبة؛ فكتاب " الفتوحات المكية " واحد من أهم كتب ابن عربي على الإطلاق وهو يعتبر عند عبد الكريم الجيلي أيضا أعظم الكتب المصنفة في هذا العلم – التصوف- نفعا وأكثرها لغرائبه وعجائبه جمعا، وأجلها إحاطة ووسعا تكلم فيها بألسنة كثيرة، وأفصح عن معان غريبة خطيرة، فصرح تارة عن حالة، ورمَز أخرى عن حال، وأفصح طورا عن مقصود، وأدمج أخرى عن مراد في المقال. (سامي،س.2005 :12)

وكان من أبرز التفاعلات النصّية في " الفتوحات المكية " تناصُّه مع القرآن الكريم والنصوص الدينية التوراتية والمسيحية، وفيه استدعاءات لا تحصى

المنارة للاستشارات
ww

للأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والتراث العربي نثرا وشعرا، والخطاب الصوفي السابق له والمعاصر له، والخطاب الفلسفي والأساطير.

وتضمينه وتأويلاته للنص القرآني تمثل بنية أساسية في نص الفتوحات، فهو دائما ما يستشهد به ويتحاور معه، ويورد آياته بين فقرة وأخرى حتى غدا ذلك كتابة على كتابة أو نسيجا على نسيج، يتضافر معه بكل المتاح من الأشكال. (سامي،س.2005)

لهذا نقول أن النص القرآني يبقى له الحضور الأقوى في التراث الصوفي بصورة عامة، والنص الصوفي الجيلاني بشكل خاص، حيث لا يتوقف عند حدود البنية السطحية فقط، بل يندمج النصان في مستويات عميقة ومتعددة من السياق.

3- الشيخ عبد القادر الجيلاني- صوفيا وفقيها وشاعرًا:

الشيخ عبد القادر الجيلاني (الملقب بالباز الأشهب وتاج العارفين وسلطان الأولياء) واحد من كبار أقطاب التصوف، وشيخ واحدة من أوسع الطرق الصوفية انتشارا في العالم الإسلامي، ولد سنة 470 هـ وكانت وفاته عام 561 هـ.

كان الشيخ الجيلاني صوفيا وفقيها حنبليا، وقد تصدَى الشيخ بمدرسته في بغداد للتدريس والفتوى والوعظ مع الاجتهاد في العلم والمجاهدات الروحية وكان يتكلم في ثلاثة عشر علما: في التفسير، وعلوم الحديث، والمذاهب والخلاف والأصول والنحو والقراءات... (الجيلاني،ع.1994:15)

جمع الشيخ الجيلاني بين الفقه والتصوف (الشريعة والحقيقة)، واعتبر التصوف الحقيقي لا يمكن تحقيقه إلا بطريقين: التزام الشرع والبحث عن المعنى الباطني. وللشيخ أقوال كثيرة، تبين مدى التزامه الشديد بالثوابت الشرعية في خطاب الصوفي (أي التوفيق بين الحقيقة والشريعة)،منها قوله:" كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طِرْ إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة، أُدخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وسلم... (الجيلاني،ع. 1994:21)

ومما قاله أيضا " ادخل بالظلمة في المصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تخرج عنهما، فإن خطر خاطر أو وجد إلهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك فادفعه عنك واهجره، لا تقبل به ولا تعمل به، اقطع أنَه من الشيطان اللعين.." (الجيلاني،ع.1973:19)

وكان الشيخ الجيلاني من الصوفية الذين عبروا عن تجربتهم الذوقية تعبيرًا أدبيًا، فترك لنا مجموعة من القصائد الصوفية والمقالات الرمزية التي يغلب عليها الطابع الشعري، لكن ظل ذلك متناثرًا في عديد من المخطوطات وكتب التراجم والسير والطبقات.

إلى أن أقام د. يوسف زيدان بجمعه من أصول متعددة في كتابه الموسوم (ديوان عبد القادر الجيلاني)، الذي يعتبر أول نسخة محققة تجتمع فيها الآثار الأدبية التي تركها الشيخ الجيلاني، والذي سيكون معتمدنا في هذه الدراسة.

المنارة للاستشارات
ww

4- سمات الشعر الصوفي عند الشيخ الجيلاني :

عبر الصوفية منذ القديم عن حقائقهم ورقائقهم وهواجسهم وتجاربهم من خلال ثلاثة أشكال رئيسية: الكتابة النثرية بألفاظ اصطلاحية لا يعرفها سوى خاصة القوم، والقصص الرمزي المفعم بالتلويحات، ثم الشعر الصوفي: " والشعر عند الصوفية كشف وجودي، وديوان وجداني، تعتق فيه التجربة الروحية لتصفو من كدر هيكلها، وتطهر ذاتها بذاتها تطهيرًا جوَّانيًا، فيبدو تجوهرها وتجرُدها في مرآة وجودية،وما ذاتها إلا لؤلؤة كونية" (أمين أحمد،ع. 257:1992)

والصوفية منذ فجر التصوف إلى اليوم اتخذوا الشعر قالبا تعبيريا، ومنهم الشيخ الجيلاني الذي: " لم يكن شاعرا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنما كان الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية الدقيقة؛ (زيدان،ي .دتا :21) إذ أن الشيخ الجيلاني كان صوفيا شاعرا ولم يكن شاعرا متصوفا كابن الفارض، فهذا الأخير أجمع القدماء والمحدَثون على الإشادة بشعره والاهتمام بديوانه: "يشهد بذلك كثرة نساخه وشارحيه وناشريه، إضافة إلى ما قيل فيه من مدح وتقريظ" (يعيش،م.254:2003).

وقد أثنى بعضهم على ديوانه فقال:" هو من أرق الدواوين شعرا، وأنفسها درًّا برًّا وبحرا وأسرعها للقلوب جرحا، وأكثرها على الطلول نوْحا، إذ هو صادر عن نفثة مصدور، وعاشق مهجور، وقلب بالنوى مكسور، والناس يلهجون بقوافيه." (يعيش،م.254:2003).

أما شاعرنا الشيخ الجيلاني، فقد أحصى د. يوسف زيدان مجموعة من السمات تميز بها شعره، نجملها فيما يلي:

تعلو نغمات الدلال والفخر في أبيات الشيخ الجيلاني، ممَّا حدا بابن عربي لاتخاذه مثالا على دلال الأولياء وزهوهم بمراتبهم عند الله ، خاصة في تلك الأحوال غير العادية التي يعايشها، والأمواج العالية من الأنوار التي يعاينها.

ومن بين خصائص شعره أيضا ما يتعمده الشاعر من سلوك سبيل الرمزية في الكتابة وضرب الأمثال، وهذه عموما سمة من سمات الشعر الصوفي بشكل عام. وغالبا ما تختتم قصائده بأبيات تشير إلى اسمه أو أحد ألقابه المشهورة، وهي الظاهرة المعروفة باسم: التخلص كقوله في هذه الأبيات:

- أنا بلبل الأفراح أملأُ دوحها طربًا وفي العلياء باز أشهـبُ
- أنا قادريُّ الوقت عبد لقادر أكنى بمحي الدّين والأصل جيلاني
- أنا عبد لقادر طاب وقتي وجدّي المصطفى شفيع الأنـام
- أنا الحسني الأصل عبد لقـادر دعيت بمحي الدّين في دوحة العُلا .(زيدان،ي.دتا:178-177)

حالَ مقامُ الشيخ الجيلاني كواحد من أعلام الفقه والتصوف في عصره دون العناية بشعره وتطويله وتنميقه، فلا نجد عنده القصائد الروائع المطولة التي نجدها

المنارة للاستشارات
ww

عند ابن الفارض وعبد الكريم الجيلي وغيرهما من الصوفية غير المشتغلين بالفقه، وهذا يذكرنا بعبارة الإمام الشافعي الشهير (زيدان،ي.دتا:22):

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

"..وعلى الحقيقة، فإنّ النظرة الناقدة لقصائد الإمام الجيلاني، لا تلحقه بكبار أقطاب الشعر الصوفي، فعلى الرغم من قوة المعاني الصوفية عنده، واشتداد النّفحة الكشفية في أبياته إلا أن هذه الأبيات من حيث اللغة لا تخلو من ضعف". (زيدان،ي.دتا:23)

5- التنـاص في النـص الصوفـي للشيـخ الجيلانـي:

إذا نظرنا إلى التناص كممارسة من قبل المتصوفة، فإن هذه الفئة من أكثر الفئات توظيفا " للتناص" في منتوجهم شعرا كان أو نثرا، فهم يمتحون من تراث الآخر (النص الفلسفي والنص الاجتماعي والنص الأسطوري...) فيأخذون من إنتاجاتهم لتجويد صناعتهم وتعميق رآهم وإبداعاتهم، ويتماهون مع النصوص الدينية،كما يمتحون من تراثهم المكثف، أو ما يطلق عليه (حضور الصوفي في الصوفي).

والنص الشعري عند الشيخ الجيلاني يقوم على تلك الفكرة الحوارية مع النصوص الصوفية الأخرى والنصوص الدينية (القرآن والحديث الشريف) التي يتم استدعاؤها إلى مجال النص.

وقبل أن نتطرق إلى التناص القرآني في شعر الشيخ الجيلاني، لا بأس أن نعطي نماذج من تناص النص الصوفي للشيخ الجيلاني مع الحديث الشريف ونصوص أعلام التصوف من خلال نصوصه الشعرية أو مقالاته الرمزية:

أ- التنـاص مع الحديث الشريـف:

نجد في النص الشعري للشيخ الجيلاني تداخلات مع نص الحديث الشريف، من خلال علاقة تفاعلية -تعضيدية كما يسميها د. محمد مفتاح -تقوم على الاحتكاك بهذه النصوص والتحاور معها،وهذا ليس غريبا فالرجل قبل أن يكون صوفيا فهو فقيه متمكن يشكل النص النبوي عنده أحد أعمدة خطابه الديني.

* ومن أمثلة التناص مع الحديث الشريف قوله:

قطعت جميع الحُجب للحبّ صاعدًا ومازلت أرقى سائرًا بمحبــتي

تجلّى لي الساقي وقالَ إليَّ قُم فهذا شرابُ الحب في حان حضـرتي

تقدّم ولا تخش كشَفنا حجابنا تملَّ بحاني والشراب ورؤيــتي

المنارة للاستشارات
ww

يوجد في البيت الأول تناص مع معنى الحديث الشريف:" إن لله سبعين حجابًا من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه تعالى، ما انتهى إليه بصره " (أخرجه مسلم، باب الإيمان293- ابن حنبل: المسند 405/4،401- ابن ماجة، المقدمة، 13) (زيدان،ي.دتا:112).

وللصوفية أقوال كثيرة في قطع العقبات والحجب في رحلة السير إلى الله بأقدام الصدق والتجرد عن الأكوان، وطيرا بأجنحة المحبة لاختراق سماوات الأحوال والمقامات حتى تحطَّ عصا الترحال والسفر عند خيام القرب من الله.

* قال الشيخ الجيلاني:

ويا وارث اجعلني لعلمك وارثًا ورُشدًا أنلني يا رشيدُ تجمّلاً

العلم المذكور هنا، يراد به العلم اللَّدُني، ولهذا العلم أهله الذين اصطفاهم الله واختارهم لذلك. والبيت فيه تناص مع معنى الحديث الشريف:" العلماء ورثة الأنبياء" (صحيح البخاري)(زيدان،ي.دتا:173).

وتعرف تجليات العلم الإلهي عند الصوفية بالوراثة عن المقام المحمدي، وعن غيره من مقامات الأنبياء.

وبهذا يكون دعاء الإمام الجيلاني للوارث عز وجل أن يجعله من الوارثين لعلمه عن أنبيائه تعالى، وقوله بعد ذلك (رشد) فيه تناص مع قول موسى عليه السلام للعبد الصالح: " هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا "[الكهف/66] وذلك لبيان ضرورة اقتران هذا العلم اللدني بالرشد والصلاح.

ب- التناص مع النصوص الصوفية:

إذا كان من أبرز التفاعلات النصية في شعر الشيخ الجيلاني هو تناصه مع القرآن الكريم ونصوص الحديث الشريف، فإنه يقوم أيضا باستدعاءات لا تحصى ولا تعد للخطاب الصوفي السابق له بشخصياته وقضاياه بعد شحنه بدلالات وإيحاءات من باب التعضيد كما ينعته د. محمد مفتاح- احتراما أو تبجيلا أو توقيرا -للمعاني التي يحملها النص الأصلي.

فنص الشيخ الجيلاني - شعرا ونثرا- يتناص مع الكثير من النصوص الصوفية ولا غرابة في ذلك فهو نص ولد في بيئة عربية إسلامية وتخرَّج من تربة صوفية بحتة.

ومن هنا كان للتناص مع نصوص وكتابات المتصوفة السابقين إضافة جديدة لمضامين تلك النصوص، وإلقاء الضوء على أفكارهم أو تأويلها في اتجاه تتوافق فيه الحقيقة الصوفية مع الشريعة خاصة الشطحات التي لقيت معارضة من النظام المعرفي المأدلج (المعرفة التي رسمتها السلطة السياسية).

* يقول الشيخ الجيلاني في إحدى مقالاته الرمزية:

"طار واحد من العارفين إلى أفق الدعوى بأجنحة " أنا الحق" صفّرَ بغير لغته تعريضا لحتفه فوقف في مقام الدهشة على أقدام الحيرة، فلما أخرسه الفناء،

المنارة للاستشارات
ww

أنطقه الشكر، فقال: أنا الحق.. فأجابه حاجب الهيئة: اليوم قطع وقتل، وغدًا قربٌ ووصلٌ. " زيدان،ي.دتا:271-272)

في هذا النص تناص مع مأساة الحسين بن منصور الحلاج، ومع عبارته الشهيرة:

"أنا الحق "، وهي المقولة الحلاجية المعروفة، التي شطح بها، فأخذت بيده إلى السيَّاف وكانت سببا مباشرا لمقتله ببغداد سنة 309 هـ، بعد أن جُلد وقُطعت يداه ورجلاه،و شُوِّه و صُلب و قُطعت رأسه وأُحرقت جثته.

إذا *فالنص* الجيلاني يتناص مع عبارة الحلاج لفظا " أنا الحق" ويتناص أيضا مع الطريقة التراجيدية في إعدام الحلاج من خلال عبارة"..اليوم قطع وقتل .."

أما خصوصية التوظيف فنلمسها أولا في حضور النص الصوفي الحلاجي ومأساته في نص الشيخ الجيلاني وثانيا محاولة الشيخ إبعاد تهمة المروق عن الدين، بهذا الصوفي العارم الذي خانته اللغة في التعبير عن الحقائق الصوفية فجرفته إلى الممنوع العقائدي ثم قادته إلى نهاية مأساوية.

نلمس كل هذه المعاني من خلال عبارات الشيخ الجيلاني:"..طار واحد من العارفين صفر بغير لغته... أنطقه السكر.. اليوم قطع وقتل وغدا قرب ووصل.."

وهناك عبارة شهيرة للجيلاني، ذكرتها غالبية المراجع، تقول:"عثر الحلاج ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذت بيده" (زيدان،ي. 1998:39).

ويبدو أن الجيلاني قد تأكد من أن عثرة الحلاج كانت على مستوى التعامل مع اللغة (لغة الذوق)، فحاول تأويل كلامه على محمل حسن، وتكوين الشيخ الجيلاني العلمي وخلفيته الفقهية تؤهلانه لهذه المهمة التوفيقية (بين الشريعة والحقيقة).

* قال الشيخ الجيلاني شعرا (زيدان،ي.دتا:113):

تجلَّى لي السّاقي وقال إليَّ قُم فهذا شرابُ الحب في حان حضرتي

تقدم ولا تخش كشفنا حجابنا تملَّ بحـاني والشـراب ورؤيـتي

في عجز البيت الثاني تناص مع صدر البيت الثالث في رباعية رابعة العدوية أو التي يُروَى أنها تفوهت بها (الفقيه،ش.2008: 38):

أحبّك حبين حبّ الهوى وحبًّا لأنـك أهـل لذاكـا

فأمَّا الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكـا

و أما الذي أنت أهلٌ لـه فكشفك للحجب حتّى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمـد في ذا وذاك

كشف الحجاب هو سقوط موانع المكاشفة، بما يفضي إلى المشاهدة والرؤية، وللصوفية كلام مطول في كشف الحجب النورانية والظلمانية، وتهيؤ القلب لقبول التجليات الإلهية..(زيدان،ي.دتا:113).

المنارة للاستشارات
ww

* قال الشيخ الجيلاني :

ولـولا رسولُ الله بالعهد سابق لأغلقْتُ أبواب الجحيم بعظمتي

مريدي لك البشرى تكون على الوفا وإن كُنتَ في همٍّ أُغثْك بهمَّتي

في الشطر الثاني من البيت الأول تناص مع أقوال بعض الصوفية نذكر منها قول البسطامي:" ما النّار؟ لأستندنَّ إليها غدا وأقول: اجعلني لأهلها فداء أو لأبلعنَّها." (بدوي،ع.1978: 31).

وقول الشبلي أيضا:" إنّ لله عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها"(بدوي،ع.1978 :43).

وهذه الأقوال في جملتها إشارات رمزية لتحقق الصوفي بمقام الشفاعة والغوثية، فالصوفية يعتقدون بشفاعة الأنبياء والأولياء: " وقد إرتبطت الشفاعة بالغوثية التي ارتبطت بدورها بالقطبية، بحيث اقترنت دوما في تعبيراتهم كلمتي (القطب- الغوث) فالغوثية تعني شفاعة القطب والأولياء في الخلق، سواء في الدنيا أو الآخرة" (زيدان،ي.دتا:163).

* قال الشيخ الجيلاني:

فلا عالمٌ إلا بعلمي عالم ولا سالك إلا بفرضي وسُنّتي

الإشارة هنا إلى تجلي العلم الإلهي، وتحقق القطب بمنازل المعرفة الربانية المحيطة بكل علم، حتى يصير هذا القطب واسطة بين الخلق والخالق، وهو مقام من أعلى مقام الطريق، والنص هاهنا يتماهى مع ما أشار إليه ابن الفارض في التائية الكبرى:

فما عالـم إلا بفضلي عالم ولا ناطق في الكون إلا بمدحتي (زيدان،ي.دتا: 97).

وعليه، فقد أثبتت هذه الأمثلة والشواهد على حضور النصوص الصوفية في سياق النص الصوفي الجيلاني، محققة ظاهرة "التناص"، سواء في بنيته السطحية أو العميقة، فترى أبيات أو مقاطع أو شخصيات صوفية لها دلالتها ورمزيتها في الفكر الصوفي، مضمنة كما هي أحيانا. وقد أسهم ذلك في تشكيل نص الشيخ الجيلاني لغويا ودلاليا وتعزيز تلك النصوص المقتبسة إبستمولوجيا وإديولوجيا، (أي تبجيلها واحترامها وتوقيرها حسب د. محمد مفتاح).

6- التنـاص القرآنـي في شعر الشيـخ الجيلانـي:

الشيخ الجيلاني نشأ في بيئة إسلامية ويعتبر القرآن الكريم قطب الرحى التي تدور حوله نصوص هذا المتصوف، والمحور الأساسي لوجوده وفلسفته.

ومن هنا انزاح النص القرآني باعتباره نصا مركزيا في النسيج الفكري والوجداني للشيخ الجيلاني، إلا أن توظيفه للتناص جاء مطبوعا بالطابع الصوفي،

المنارة للاستشارات
ww

أي التناص القرآني في النص القادري له خصوصيته باعتبار أنه ينتمي إلى فضاء معرفي له لغته الخاصة وقضاياه (الفضاء الصوفي).

تمثل علاقة الشيخ الجيلاني مع النص القرآني علاقة الفقيه الصوفي فهو يستشهد بهذا النص ويتحاور معه ويورد آياته لفظا أو معنى، أو يستدعي بعض أسماء هؤلاء الأعلام الوارد ذكرهم في النص القرآني وقصصهم (الرسل والأنبياء...)، أو يتناص مع أسماء القرآن الكريم وأسماء سوره، أو يتناص مع آيات بها ذكر لذاته تعالى وصفاته أو ذكر للإنسان المؤمن وصفات المصطفين.

ولا يأتي هذا التناص على سبيل التحلية الفنية، ولكن يأتي ذلك لأجل تعميق الدلالات بما ينسجم مع مقاصد الشاعر وأغراض الشعر الصوفي، لأن تلك الأسماء أو تلك العبارات القرآنية ترتبط بسياقات شتى أو بعالم واسع من الخطابات حسب تعبير كرستيفا.

وسنعرض الآن أمثلة من تناص شعر الشيخ الجيلاني باعتباره نصا صوفيا مع النص القرآني، مع الإشارة إلى خصوصية التوظيف وأبعاده:

* يقول الشيخ الجيلاني:

أنا من رجال لا يخاف جليسهم ريْبَ الزّمَان ولا يرَى ما يرهب

يشير الشيخ الجيلاني بالرجال هنا إلى "الأولياء"، وبالتالي فهو يتناص مع ما ورد في حقهم من خلال قوله تعالى:" ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " [يونس/62]، وقد وردت في هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن الكريم.

كما يتناص البيت الشعري مع ما جاء في الحديث الشريف من أن هؤلاء الرجال :"لا يشقى بهم جليسهم" (الترمذي:كتاب الدعوات،ابن حنبل: المسند).(زيدان،ي.دتا: 98)

* يقول الشيخ الجيلاني:

أنا كنت في العليَا بنور محمّدٍ وفي قابَ قوسين اجتماع الأحبَّةِ

(زيدان،ي.دتا:89).

في الشطر الثاني من البيت إشارة إلى القرب من الله تعالى على طريقة أهل القول في الكلام حيث درج الصوفية منذ القديم للتعبير عن هذه الحالة بعبارة: (قاب قوسين)، يقول القاشاني:" قاب قوسين: مقام القرب الأسمائي في الأمر الإلهي...وهو الإتحاد بالحق مع بقاء التمييز.."القاشاني، :1995:79).

وفي عبارة الشيخ الجيلاني تناص مع قوله تعالى:" فكان قاب قوسين أو أدنى.." [النجم/9].

*يقول الشيخ الجيلاني:

وأمري بأمري الله إن قلت كن يكن وكلٌّ بأمر الله فاحكم بقدرتي

وأصبحتُ بالوادِ المقدّس جالسا على طور سينا قد سموت بِخَلْعَتِي(زيدان،ي.دتا:107).

المنارة للاستشارات
ww

الوادي المقدس طور سينا وهو رمز صوفي لمراتب علوية يرقى إليها الواصلون إلى حضرة الحق تعالى، ولا يتحقق الوصول إلى الحضرة الإلهية إلا بعد التجرد "وخلع النعلين"، والنعلان هما: النفس والجسد، وهو رمز صوفي آخر، أي لا بد من التجرد عن النفس والجسد لتحقيق الرؤية والمعية والصحبة والحضرة الدائمة مع الله. (محمود،م.دتا: 147)

ومن خلال هذه المعاني الصوفية يتحقق التناص مع قصة موسى عليه السلام في مناجاته لربه والتي اشتق الصوفية منها رموزهم تلك:"..فلَمَّا أتاها نودي يا موسى، إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى" [طه/11،12].

*يقول الشيخ الجيلاني:

ولأجلنا وجد الزمان وكونُه فالدَّهْرُ عبدٌ والزّمانُ غلامُنَا
ولنا الولاية من:ألست بربكم رشقت قلوب المنكرين سهامنا

النص في البيت الأول يتناص مع معنى أحد أبيات ابن الفارض في تائيته الكبرى حين يقول:

لولاي لم يوجد وجودٌ ولم يكن شهودٌ ولم تعهد عهود بذمتي.(زيدان،ي.دتا:168)

ويمكننا إدراج هذا التناص " ضمن الحركة المعقدة لعملية الإثبات والنفي المتزامنين لنص آخر " التي أشارت إليها كريستيفا. (الحسني،م.:44:2007)

وفي البيت الثاني تناص مع الآية الكريمة:"..وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّاتهم وأشهدهُم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدْنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين"[الأعراف/172]

وتبدو خصوصية توظيف التناص في البيت بما تحمله عبارة " ألست بربكم" عند الصوفية إذ تعني: النشأة السابقة على آدم وهو إشارة إلى عالم الذر، أي عالم الأرواح "في عالم اللاهوت " قبل خلق الأجساد حيث أخذ الله تعالى الميثاق بقوله: "ألست بربكم" وتلك هي فطرة التوحيد التي فطر الخالق الناس عليها، من قبل وجود آدم، ويرمز الصوفية إلى ذلك باصطلاحات عديدة مثل: الخلق الأول، خمرة التوحيد، شراب ألست، عالم الأرواح، الذر.. السماع الأول، العهد الأول،.. (قيداري،ق. 2004 : 307-308)

*يقول الشيخ الجيلاني (زيدان،ي.دتا:98):

أنا كنتُ مع نوحٍ أُشاهدُ في الورى بحارًا وطوفَانًا على كَفِّ قُدْرَتي
وكنت وإبراهيم ملقى بناره وما برَّدَ النّيرَانَ إلاَّ بدعوتي
وكنتُ مع إسماعيل في الذَّبْحِ شاهدًا وما أنزل المذبوح إلا بفتيتي
وكنت مع يعقوب في غشو عينه وما برئت عيناهُ إلاَّ بتفلتي

المنارة للاستشارات
ww

وكنت مع إدريس لما ارتقى العـلا وأسكـن في الفردوس أحسن جنّـة

وكنت مع موسى في مناجاة ربـه وموسى عصاه من عصاي استمدَّت

وكنت مع أيوب في زمـن البـلا ومـا برئت بلـواه إلا بدعـوتي

وكنت مع عيسى وفي المهد ناطقا وأعطيت داودًا حلاوة نغمـتي

ترتبط أعلام القرآن الكريم بالقصص الديني الذي قصه الله تعالى على الرسول عليه الصلاة والسلام، لإثبات الوحي والرسالة وبيان أن أساس الدين كله واحد، وأنه كله من عند الله، وأن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة، وأن استقبال قومهم لهم متشابه، وأن الله ناصر أنبياءه ومهلك مكذبيهم في النهاية، وأنه تعالى المنعم عليهم وعلى أصفيائه وأنه القادر على الخوارق...(قطب،س. دتا :118-126).

في الأبيات الشعرية للشيخ الجيلاني تناص مع معاني آيات بها ذكر لأعلام القرآن الكريم وقصصهم، واستدعاؤه لهؤلاء الأعلام مشفوعين بقصصهم في شعره لم يكن صنعة لفضية، بل كان من قبيل التلميح إلى معان ودلالات خاصة تقتضيها التجربة الصوفية، التي ينبغي قراءتها هنا في ضوء الإتحاد بالحقيقة المحمدية (نور محمد السابق على الخلق).

تقوم نظرته الحقيقة المحمدية أو "النور المحمدي" على الاعتقاد بأن النبي محمدا هو في حقيقته ليس بشرا، وإنما هو نور أزلي أبدي، ظهر في آدم، وصار ينتقل في الأنبياء من بعده، حتى ظهر بصورة النبي محمد، ويذكر نيكلسون أن الجوهر الروحي لمحمد هو أول شيء خلقه الله، وهو يدرك بوصفه نورا سماويا تجسد في آدم ثم الأنبياء من بعده حتى محمد الذي ختم ظهورهم (سليطين،و.1995: 114)

وتظهر لنا الحقيقة المحمدية عند الشيخ الجيلاني في صورة الإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه جميع حقائق الوجود فهو يصدر عنها في هذه الأبيات، وينوه بها مستبشرا إلى كونه وريث هذا النور المحمدي الذي تجلى في آدم والأنبياء قبله في نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب وإدريس.

يتناص الشيخ الجيلاني في أبياته تلك مع النص القرآني من خلال استحضاره لمعاني تلك الآيات القرآنية التي تتعرض إلى قصص الأنبياء ودلالات شخصياتها ورمزيتها، أما خصوصية توظيفه لهذا التناص، فيكمن في استحضاره لتلك المعاني القرآنية ولكن في سياق الخطاب الصوفي وتأويلاته وفق نظرية الحقيقة المحمدية كما ذكرنا.

فالشيخ الجيلاني يتعرض في نصه الشعري إلى أسماء الأنبياء وقصصهم ويتناص مع الآيات التي تشير إلى ذلك في القرآن الكريم وفق الأتي:

المنارة للاستشارات
ww

- يشير في البيت الأول إلى قصة نوح مع الطوفان، وهنا يتناص مع [سورة هود الآيات:36-42]

- وفي البيت الثاني إشارة إلى قصة إبراهيم مع النار ويتناص مع [سورة الأنبياء الآية:69]

- ويحيل البيت الثالث على قصة إسماعيل مع الذبح ويتناص بذلك مع[سورة الصافات الآيات:102-107]

-والبيت الرابع يشير إلى القصة القرآنية الخاصة برجوع البصر إلى يعقوب عليه السلام حين ألقى إليه البشير قميص يوسف،وفيه تناص مع [سورة يوسف,الآيات:93-96]

- ويتعرض البيت الخامس إلى إدريس ورفعة المكانة،وفي ذلك إشارة إلى[سورة مريم، الآية:57]

- وفي البيت السادس حديث عن مناجاة موسى لربه على طور سينا،وانقلاب عصى موسى إلى حية تسعى،وهنا يمكن مراجعة الآيات التالية:[سورة النمل/9،10- القصص/31-طه/18-الأعراف/107- الشعراء/32]

- ويشير البيت السابع إلى كشف بلاء أيوب وكربه، وفي هذا تناص مع معاني الآيات التالية: [سورة الأنبياء/8,88]

- وفي البيت الأخير إشارة إلى عيسى حينما كلم الناس في المهد وفي هذا تناص مع [سورة آل عمران الآية/46]، وإشارة أيضا إلى قصة مزامير داوود التي كان يناجي بها ربه و هنا تناص مع أحد الأحاديث النبوية الشريفة.

وفي الأخير يمكننا أن نسجل بعض الملاحظات عن خصوصية التوظيف، أي توظيف النص القرآني في سياق النص الصوفي الجيلاني:

1- النص الشعري الجيلاني يستوعب النص القرآني ويتناص معه " لغة وسردا ورؤية وأعلاما،.." ويمنحها دلالات تتماها وخطابه الصوفي.

2- النص الصوفي عند الشيخ الجيلاني يتناص مع القرآن الكريم كتأييد له وإحياء له لاشك في ذلك، أي وفق علاقة تعضيدية بحسب تعبير د. محمد مفتاح، ولكن مع إعطاء بعد دلالي جديد للنص وليس استحضارا له فقط، أي توظيف التناص وفق رؤى وفلسفة الخطاب الصوفي وغاياته.

3- النص القرآني له حضور قوي في النص الصوفي الجيلاني "شعرا أو نثرا"حيث لا يقف التناص عند حدود التوظيف الخارجي، بل يتعداه إلى حدٍّ يندمج فيه النصان في مستويات متعددة من السياق كما مر بنا.

4- التناص مع القرآن الكريم يمثل أيضا تجديدا منهجيا في إبداعية النص الصوفي بشكل عام، وهو هنا يساوق صاحبها بين مكنون الرمز الصوفي وجمالية الرمز الفني في التصوير القرآني.

قائمة المصادر و المراجع:

المنارة للاستشارات
ww

1- د. الحسني،م.2007 :"مفهوم التناص، خصوصية التوظيف في الشعر الإسلامي المعاصر"، ط2. الدار البيضاء، المغرب. دار النجاح الجديدة .
2- كريستيفا،ج.1991: " علم النص" ترجمة: فريد الزاهي، ط2 .الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر.
3- د. أمين أحمد،ع.1992: "التراث الأدبي للحلاج الصوفي"، ط2. القاهرة، دار المعارف.
4- د. الصغير،ع.1999: " التصوف كوعي وممارسة"، ط1. الدارالبيضاء، المغرب. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
5- د. سحر سامي،س،2005 : " شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية " (لمحي الدين بن عربي)، (دط). القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
6- الجيلاني،ع.1994: " رسالة في الأسماء العظيمة"، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول. ط2، دمشق، دار السنابل.
7- الجيلاني،ع. 1973 : "فتوح الغيب"، (دط). مصر، مطبعة البابي الحلبي وأولاده.
8- د. زيدان،ي.(دتا): " ديوان عبد القادر الجيلاني، القصائد الصوفية، المقالات الرمزية " (دط). القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم.
9 - محمد يعيش،م.2003:"شعرية الخطاب الصوفي، الرمز الخمري عند ابن الفارض نموذجا"، (دط). فاس، سيباما.
10- زيدان،ي.1998: " المتواليات، دراسات في التصوف"، ط1.القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
11- شبر الفقيه،ش.2008: " الحب الإلهي وتطوره عند المتصوفة"، ط1، بيروت،دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.
12- د. بدوي،ع:1978 " شطحات الصوفية" .ط3، الكويت، وكالة المطبوعات.
13 -القاشاني ،1995: " اصطلاحات الصوفية"، ضبطه وعلق عليه موفق فوزي الجبر ،ط2. دمشق، دار الحكمة.
14 - محمود ،م.(دتا) : " رأيت الله"، ط4، القاهرة، دار المعارف.
15-قيداري،ق.2004: "دلائلية مصطلح السماع في الفكر الصوفي" مجلة الأثر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، العدد:.4
16 - قطب ،س.(دتا): " التصوير الفني في القرآن الكريم" ،(دط).بيروت، القاهرة، دار الشروق .
17- سليطين،و. 1995: " الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد"، ط2. القاهرة، مصر العربية للنشر والتوزيع .

المنارة للاستشارات
ww